

في سوسولوجيا الأدب والفن السينمائي

عاشوري أحمد

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

الملخص : يتناول هذا المقال أحد الاختصاصات

في السوسولوجيا ، والذي يعنى بالأدب والفن الروائي، بما تطرحه مختلف النظريات خصوصا البنيوية التكوينية لدى كل من غولدمان ولوكاتش ، وكذا ظهور النظريات النقدية التي جاءت بها مدرسة فرانكفورت والتي بدأ يظهر فيها الأدب والفن بوصفهما الشكل الأكثر بساطة للشجاعة الإنسانية، وبدا كم هو مهم التفكير في مكانة الأدب والفن في البناء العام للمجتمعات الحديثة، باعتبارهما ابنا الحياة وملازمين للإنسان.

مقدمة :

عند ما ظهرت السوسولوجيا كعلم مستقل بادئ الأمر لم تحلو لها هذه الاستقلالية فتحوّلت مع مرور الوقت إلى علم تدخلي ، وأصبحت تحشر أنفها في شتى العلوم والتخصصات ، حتى أصبح كل تخصص فيها مستقلا بنفسه ، وعلى هذا النحو يجوز لنا أن نقول بأن السوسولوجيا "حشرية" ولا يهدأ لها بال إلا إذا تدخلت فيما لا يعنيتها ، أحيانا مسائلة للظواهر وكاشفة لأسرارها أو متطفلة في ثوب الفضولية التي تبحث عن شيء ما ، وربما يكون هذا حالها مع الأدب إذا ما أخذناه بالشكل الذي تحدث عنه رولان بارث من حيث أنه يتعامل مباشرة مع الأشياء والظواهر⁰¹ ، لقد سجل ألبير ميمي حوالي 1960 تخلف سوسولوجيا الأدب حيث كتب "أن هذا الفرع من السوسولوجيا مازال لم يؤسس بعد"⁰².

وقد يكون فيما قال بعض الحقيقة ، فما حاولت فعله سوسولوجيا الأدب لا يتعدى البحث عن الأبعاد الاجتماعية التي تحدد العمل الأدبي، ونقد العلوم الاجتماعية بشكل عام أهم ضروب المعرفة التي تعنى بالدراسات الأدبية، ولكون الأدب يتجذر حتما في واقعه ومحيطه ويرتبط أشد الارتباط بالحياة الخاصة لكل مجتمع ، خاصة إذا ما علمنا أن من مهامه تغير الواقع والوعي البشري ، ناهيك عن كونه أيضا استجابة للصراع الطبقي الموجود في المجتمع⁰³ ، ثم إن الواقعة الأدبية تعمل -فقط- على محاكاة الواقع بطريقة أو بأخرى، إنها تفصل بين الواقع من جهة وبين اللغة من جهة أخرى، بحيث يكون الواقع دائما في المرتبة المتقدمة وعلى اللغة أن تركض خلفه دوما في محاولة يائسة للالتحاق به، غير أنها -ومع ذلك- تملك القدرة على أن تخلق معنى ثابتا .

إذا أصبحنا نتفق وجهارا بأن السوسولوجيا هي العلم الذي يبحث في الأبعاد الاجتماعية للحياة الإنسانية ويحاول فهمها، ولا يهم في هذه الحالة أن يكون الفهم صحيحا أو خاطئا بل المهم الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها في تفسير شبكة العلاقات سواء تشكلت واقعا ، أو من خلال الأعمال الأدبية فمعظم الناس هم أناس آخرون، أفكارهم هي آراء أشخاص آخرين وحياتهم محاكاة وعواطفهم اقتباسات كما يقول بذلك أوسكار وايلد ، ومن بين مساعي السوسولوجيا هي الكشف عن أشكال نفوذ النخبة التي تختبئ وراء الأشكال الثقافية كلها، فبواسطة هذه الأخيرة يستطيع الإنسان أن يفهم ويستوعب فكرا وعاطفيا ما يدور من حوله، فالثقافة بشكل عام هي نتاج النشاط الإنساني وليست فعلا من أفعال الطبيعة⁰⁴.

• سوسيولوجيا الأدب تمهيد اشتقاقي:

إذا سلمنا أن الأدب ليس خطابا معرفيا يقدم حقائق ونظريات وبأن فهمه ينطلق من المجتمع كما يقول لوسيان غولدمان ، فإن سوسيولوجيته حتما تتعلق به وبكل ما له علاقة بالإبداع الأدبي ، هذا الأخير وبدون الغوص في التعريفات يعبر عن مدى الفعالية الاجتماعية والثقافية للمجتمع انطلاقا من كونه نشاط انساني، فالرواية كأحد الابداعات لا يعدو موضوعها غير الكشف عن بنية اجتماعية يعيشها أبطالها ، وكل روائي قد يراهن مثل ما يرى العروي على كشف عقدة شعبه، وسوف نقف في محطات هذه المقالة عند الرواية بشيء من التفصيل، لكونها أبرز الابداعات التي تنمهي معها السوسيولوجيا في احدى جوانبها الانتاجية إذا ما اعتبرناها كنتاج لرؤية فردية لا تنفصل عن المعطيات الاجتماعية ، فكل نص أدبي ليس سوى تجربة اجتماعية كما يقول عبد الرحيم العطري، وهو مفتوح على دلالات كثيرة وتتساكن معه نصوص أخرى، فهو كما يتكلم عنه أمبرتو إيكو "النص كون مفتوح بإمكان المؤول أن يكشف داخله سلسلة من الروابط اللانهاية، وهو في النهاية عالم لغوي ينشئه الكاتب ليقول فكرة ما أو للتعبير عن أزمة ما في الجسد الذاتي والمجتمعي كما يرى هذا الروائي واسيني الأعرج .

لا يمكننا الادعاء بمعرفة عميقة حول تخصص سوسيولوجيا الأدب رغم أنه لا يتعدى انتشاره وظهوره الأربعين سنة فقط أو يزيد عن هذه الفترة ، مهدت له بعض دراسات لعلماء الاجتماع كدوركاتيم وموس ، خصوصا أعمال فيكو في مؤلفه مبادئ العلم الجديد الذي صدر عام 1975 ، ومدام دو ستايل وكتابها الأدب في علاقته بالمؤسسات الاجتماعية، غير أن ملاحظته اتضحت أكثر مع أعمال الماركسي جورج لوكانش ولوسيان غولدمان ، وفيما بعد روبير اسكاريت، كما يمكن أن نشير-أيضا- إلى أعمال كل من أمبرتو إيكو ورولان بارث وجاك لينهارت وميخائيل باختين الذي بحث كثيرا في الأصول التاريخية

والاجتماعية للرواية ، ولأن المشتغلين بهذا العلم مجموعة كبيرة من العلماء فسوف نقتصر على نموذجين، يعدان من أهم من ارتبط بهم هذا التخصص وهما جورج لوكانش ولوسيمان غولدمان مع الإشارة إلى آخرين كلما اقتضت الضرورة العلمية والمعرفية لذلك.

1- جورج لوكانش ونظرية الرواية:

لا نستطيع حصر من أثروا في فكر لوكانش ، هذا المفكر المجري الأصل والمولود عام 1885 م، فبدأ من أيدي الشاعر المجري ذو المدرسة الأخلاقية وأرنست بلوخ الفيلسوف الألماني ، مرورا بميغيل الذي استعار منه تاريخ المقولات الجمالية ، ليؤسس به جدلية الأجناس الأدبية كما استعان بنص انجلز حول الروائي بلزاك الذي نجح أيما نجاح في تحليل بنيات المجتمع في عصره ، أين خلص في دراساته المهمة بالأدب إلى أن الشخصيات لا تتطور بحسب إرادة الكاتب بل بحسب الجدلية الداخلية لوجودها الاجتماعي والنفسي ، وليس بلزاك وحده الذي حظي بدراسة لوكانش بل هناك أيضا ولتر سكوت ، الذي يرى في رواياته استمرار مباشر لرواية القرن الثامن عشر الواقعية الاجتماعية ، وسكوت واحد من النادرين الذين كانوا يتحدثون عن الحاضر ، وتكمن عظمتهم برأي لوكانش في قدرته إعطاء الأنماط التاريخية الاجتماعية تجسيدا إنسانيا حيا ، كما أنه يطرح في رواياته الأزمان الكبرى للحياة التاريخية⁰⁵.

درس لوكانش الرواية كنوع أدبي، بل اعتبرها أهم شكل أدبي يظهر عالما لا يعرف الإنسان هل هو غريب أم أليف ، ومما سعى إليه هو توضيح الفعل المتبادل بين الرواية الاجتماعية والرواية التاريخية ، فالأولى بنظره تجعل الثانية ممكنة والثانية تحول الأولى إلى تاريخ حقيقي للحاضر، انطلاقا من علاقتها الجدلية مع الماضي والحاضر، فهو لم يخف إعجابه الشديد بالمسائل الأخلاقية والفلسفة التاريخية، ولم يبدأ اهتمامه بالمشاكل السياسية إلا مع ظهور الحرب مباشرة والتي اعتبرها مجرد جنون وعبث، معتبرا كذلك الخدمة

كذلك -بصورة أعم- تفسيراً وفهماً علمياً للأدب بوصفه ظاهرة من ظواهر هذا العالم ، وما من حقل اجتماعي أو ذو صلة به إلا وأصبح مستهدفاً بالسؤال السوسيولوجي، وما تتيحه سوسيولوجيا الأدب عموماً هو تعدد قراءات للمجتمع في شتى حركياتهِ وتناقضاته، هذه الحركية هي التي تساعد في كل مرة في ميلاد جيل أدبي كرد فعل -احتمالي- على الواقع الاجتماعي كما يقول روبير اسكاريت، انطلاقاً كذلك من أن الواقع ليس هو دائماً ما يمكننا أن نعتقد به بل هو كذلك ما يفترض أننا نفكر فيه كما يقول غاستون باشلار.

إن تأثر لوكا تش بالماركسية بدا واضحاً، خاصة إذا ما علمنا أنه عمل بمعهد ماركس- أنجلز للعلوم الإنسانية والفنون مع بداية سنة 1930م، أين التقى مع لينفتشاين الذي ساعده على اكتشاف نصوص مختلفة لهيغل وماركس وأنجلز حول الأدب والفن ، خاصة رسالة أنجلز إلى ميس هاركنس، هذه المدرسة لعبت دوراً جوهرياً في التفسير الثقافي كذلك، ولعب فيه الصراع الطبقي دوراً كبيراً في إنتاج معاني جديدة للنصوص الأدبية ، ولوكا تش واحد من الذين لا يعتبرون الواقع مجرد مكان متدهور محكوم عليه بالإثم الأمثل بل كمسرح صراع دموي بين سلبية القوى القديمة وإيجابية القوى المستقبلية .

وما لا ينكر للوكاتش حسب غولدمان هو التفاف مدرسة فرانكفورت حوله، وأنه استطاع أن يربط السوسيولوجيا بعلم الجمال في أشكاله المختلفة سواء عند كانت أو هيغل أو ماركس، وبأنه هو من أبدع المفهوم البنيوي التكويني، ومع ظهور كتاب التاريخ والوعي الطبيعي -له- لم يعد ينظر إلى العمل الأدبي كانعكاس لوعي جمعي، ولم تعد العلاقة الأساسية توجد في مستوى المضامين بل أصبح يبحث عنها في مستوى التوافق البنيوي، والفرضية الأساسية للبنيوية التكوينية تقتضي أن كل ظاهرة تدخل تحت عدد من البنيات ذات مستويات مختلفة، بمعنى أن كل

العسكرية الإجبارية كأحقر عبودية وجدت في التاريخ البشري وهو ما عبر به لصديقه الشاعر بول أرنست في إحدى رسائله التي كان يبعثها له ، وهو ما حدا به إلى أن يرى الرواية هي أقرب إلى الحياة أو بتعبير أدق انعكاس المظهر الحياة الاعتيادي ، معلناً في الوقت ذاته على أمر مهم سيكون بمثابة بوابة للباحثين الذين جاؤوا بعده وهو أن دراسة الأدب دراسة سوسيولوجية أمر ممكن وضروري⁰⁶ .

ولأن الرواية إحدى أدوات تصوير التاريخ، وما يقال عن الرواية على وجه خاص يمكن أن نعممه على الأدب كونه مجال أساسي في معرفة الجوانب الاجتماعية ومدى حرصه على تجسيد قواعد سلوكه الاجتماعي، فمونتسكيو مثلاً يراه وسيلة مفضلة لوصف الكائن الإنساني ككائن اجتماعي ، وهو هنا يقصد بالأدب كذلك الكتابات الفلسفية وغيرها ، ولهذا عد تاريخ سوسيولوجيا الأدب في جانب كبير منه بأنه تاريخ أولئك الذين يريدون تفسير المجتمع بفضل الأدب ، وهو ما تؤكد جيرمين دو ستايل (1817.1766) بأننا لا يمكن أن نفهم تاريخ أدب ما ويدرس إلا ارتباطاً بالحالة الاجتماعية والأخلاقية لدى الذي أنتجه ، فالأدب عندها وسيلة معرفة وأداة لتطوير العقلية ، لذا لا يمكن حصر العمل الأدبي في التعبير فقط عن الوعي الفعلي للجماعة فقط بل يسعى في محاولة منه البحث عن قيم لا تدافع عنها أية جماعة في المجتمع دفاعاً فعلياً ، قيم تسعى الحياة الاقتصادية إلى إخفائها وأن تجعلها ضمنية مضمرة عند جميع الأفراد ، هذا ما نجده كتجليل عند لوكا تش للرواية الذي تتخذ عنده شكلاً ديباليكتيكياً⁰⁷ .

قد تتعدى مساعي لوكا تش في تناوله أهم الأعمال الأدبية وهذا راجع لتعدد مشاغله بين الفلسفة والسياسة، فهذا الرجل كان انفتاحه في بداية الأمر على الكاتبة الجديدة والهيغلية⁰⁸ ، قبل أن يتحول إلى تلميذ نجيب في المدرسة الماركسية والتي حاول من خلالها تقديم تفسيرات لا تقف كعراقيل في وجه فهمنا للأعمال الأدبية ، وتقدم

ظاهرة تدخل في كليات متناسقة ، وهي تتخذ داخل كل من هذه البنيات دلالة خاصة ⁹.

انطلقت المدرسة الماركسية التقليدية بقيادة لوكا تش وتلميذه المعروف لوسيان غولدمان من الاعتقاد بأن الأدب ما هو سوى انعكاس للبنية التحتية أي للشرطية الاجتماعية أو الاقتصادية أو ما يعرف بالتجانس بين البنية النصية والبنية الاجتماعية ، وكذا استقصاء علاقته بالمجتمع في أساسه المادي وتطوره التاريخي حيث ترى في النتاج الأدبي العنصر المكون للوعي الجماعي ، ومنه يجوز لنا أن نذهب مع القول بأن الأدب تحول مع الرواية الواقعية إلى مختبر اجتماعي تلعب فيه اللغة دورا هاما بحكمها الأداة.

2- البطل الإشكالي والنظرية الانعكاسية عند

لوكا تش:

ظهرت الرواية في عصر النهضة كتعبير نموذجي للنظام الرأسمالي فأبرزت معظم تناقضاته في شكل فني ، استعاده لوكا تش على طريقته وفق المطابقة التي أقامها هيغل بين الحالات الاجتماعية والأشكال الجمالية ، وكما ذكرنا سابقا فالرواية تبقى عنده شكل ديكيتي للملحمة ، هذه الأخيرة التي قد تكون تعبير عن عالم ينسجم فيه الفرد والمجتمع ، أو انعكاس لعالم مفكك ومتزامن مع ظهور الفرد (البطل) الإشكالي ، حيث يركز لوكا تش في نظرية الرواية على استسلام البطل لمصيره الذي سطرته الآلهة، ويرجع ذلك في أساسه إلى المعنى التي تعطيه الحياة عامة وهو معنى إشكالي ، فمثلا في رواية دون كيشوت لسرفانتيس يظهر البطل محملا بعبء ثقيل كونه -عبثا- يبحث عن قيم ليس في إمكان العالم أن يوفرها له، الأمر الذي يقيه في عزلة كاملة وهو في أوج حالته الدرامية التي تسببت له فيها الإهزيمات في المعارك الوهمية، وهو ما يعبر عنه النموذج المثالي المجرد، وهي إحدى تقسيمات جورج لوكا تش للرواية أين يكون فيها وعي الفرد الإشكالي ضيقا بالقياس إلى

الواقع وتعقيداته، وهو نفس الشيء نجده في رواية ستندال الأحمر والأسود ¹⁰.

فإذا كان هيغل قد نظر إلى الفارق بين الملحمة والرواية نظرية تطويرة تتأسس على تحديد درجة تقدم الوعي، فأرجع الملحمة بعالمها البطولي العجائبي إلى نمط الاجتماع القديم، والرواية بعالمها الواقعي إلى نمط الاجتماع الحديث أو المعاصر فإن لوكا تش تمذهب بالماركسية وهنا نفتح قوس لنقول بأن ماركس كانت موهبته الفذة في كتابة سيناريو درامي للتاريخ الإنساني على حد تعبير فارفاكس وزير المالية اليوناني ، والمتأثر به كذلك كان مشدودا -نقصد لوكا تش - أي بالبحث عن تعليل طبقي لظهور فن الرواية كما يرى بأن لكل عصر ملحمة لذا عدت الرواية عنده ملحمة البرجوازية الأوربية ، تماما كما هي الملحمة القديمة نتاج طبقة النبلاء ، ولأن الزمنين يختلفان ، كون الملحمة تبعث في قارئها الاشتياق إلى الطفولة البريئة كانت قد بدأت تختفي، ليعوضها النشر الروائي لأنه الأكثر ملائمة للتعبير عن الحياة البرجوازية المتسمة بالسرعة والتعقيد ¹¹.

وتكمن سيطرة جورج لوكا تش على مجمل سوسيولوجيا الأدب خاصة في القرن العشرين من حيث مقدرته على استيعاب وفهم كل أفكار الفلاسفة السابقين بدء من أفلاطون وهيغل وماركس وماكس فيبر ، هذا الأخير الذي يرى أن الإنسان سجين شبكات من المعاني نسجها بنفسه كان من بين المؤثرين على فكر لوكا تش ، وعند نشره كتاب نظرية الرواية عام 1916م كتب مقدمة صرح فيها بأن الكتاب مقدمة لدراسة مطولة حول أدب دوستوفسكي الروائي الروسي الذي كان له عادة خاصة به عند بدء صياغة نصوصه الروائية وهي أن يؤسس الأفكار قبل تشكيل شخصوه وتخييل صيرورة سرده ، أي تأسيس الفكرة قبل تأسيس الحكيم ، لذا نجد في بعض متونه الروائية إيغال في التأمل الفلسفي ، وهذا راجع إلى أسئلة الوجود التي أثقلت كاهله ، ما جعله يحرص على بناء كل شخصية بدقة لتحمل موقفا فلسفيا معينا ثم يلقي بها في حراك

وهذا النمط نجده ممثلاً في رواية غوته "ولهم ميستر" الذي يقول "نحن نتكيف ونتشكل وفق ما نحوى".

ومع نهاية نظرية الرواية وما طرحته من إشكالات وأفكار ونظريات مأساوية سيصير على أنه اكتشف أو بدا له أنه في طور اكتشاف عالم جديد كونه كتب هذا الكتاب في جو بائس وبائس كان يراه أمامه في وضعه العالمي ، ومهما -كما يرى لوكا تش- حاول تولستوي مثلاً تجاوز الرواية نحو ملحمة جديدة إلا أنه بقي في إطار الحياة الاجتماعية ، لذا نجده يطلق عليه لقب هوميروس الجديد المبشر بعصر جديد ، وفي نظرنا يتجلى هذا في رواية الأبله كذلك حينما يتساءل البطل قبل إعدامه بخمس دقائق عن معنى الحياة ، وأمام قسوة اللحظة يعتريه توق إلى اللحظات التأملية المتعلقة بالإحياء الفلسفي ، وهي بدون شك لحظة مثقلة بالاستبهام الروحي ، لأن المرء يقف على حافة الميتافيزيقا ، ليخلص البطل إلى دلالة رئيسية وهي التي سترسخ في ذهنه إمكان غنى الحياة وثراءها وإمكان عيشها على نحو مختلف¹⁴ ، على الرغم من حرص الأديان على دفع الإنسان إلى التفكير في الموت الذي هو نوم عميق دون أحلام كما يقول أحد الفلاسفة.

لم ينته على كل حال حلم لوكا تش في ظهور عالم سيحقق فيه المثل الأعلى فهو لم يكف عن البحث عن نفسه ليس في كتابه نظرية الرواية بل حتى في كتبه الأخرى التي لم نتطرق إليها بالشكل الذي يليق بالفكر الماركسي ذو النبرة اللوكاتشية ، ليبقى عزاء وعزاء فكره في تلامذته وعلى رأسهم لوسيان غولدمان الذي سعى إلى تطوير فلسفته وسوسيولوجيته في الأدب ، والذي قال في نظرية الرواية أنها تبقى كتاباً هيغاليا بالدرجة الأولى حيث يعتبر الإنسان ذا قيمة في هذا العصر هو الفرد المعتمد والإشكالي ، وتبقى الرواية مرآة تتحول معنا على طول الطريق كما يقول ستندال.

السرد، ليلحظ كيف تتعاطى مع إشكالات الحياة ، ولهذا يقول بعض النقاد-بإعجاب- "إن روايات دوستوفسكي أفكار تحيا في أشخاص" ، أما لوكا تش فيرى بأن العالم الجديد الذي يتطلع إليه توجد لأول مرة في روايات دوستوفسكي وكأنها رؤية للواقع دون شروط ، وما قام به مع دوستوفسكي فعله مع تولستوي من خلال تحليل إجمالي ، فمثلاً في متنه الروائي أناكرينا حلل الظاهرة الاجتماعية في روسيا القرن التاسع عشر من خلال النظر في تحولات القيم داخل مؤسسة الأسرة وكذا علاقة الإنسان الحديث العضوية بالثقافة والمجتمع ، أين يبدو فيها الفرد إنساناً وليس كائن اجتماعي معزول¹² .

وفي نموذج آخر من الروايات، وهو الرواية السيكولوجية التي تطغى عليها الرومانسية أو وهم الرومانسية، والذي يظهر فيها الصراع على أشده بين النفس والواقع الخارجي ، وفيها تظهر بجلاء إشكالية البطل ومثاقمته بل وحتى ضياعه وهو ما تعبر عنه روايات غوستاف فلوير (1880.1821) بدءاً من "مدام بوفاري" الذي اعتبرت كمتن سردي صادم يكشف تحولات القيم في المجتمع الفرنسي بأسلوب واقعي لا يضمّر ولا يخفي بل يفضح اختلال العلاقات الاجتماعية والقيمية ، ويرجع لوكا تش عدم التوازن هذا إلى كون النفس واسعة وشاملة أكثر من كل ما يمكن للحياة الخارجية أن تقدمها لها ، ومنه يقول تنحدر إشكالية هذا النوع الأدبي من ضعفه في مواجهة المستقبل والسيطرة على واقع ثقيل وقوي يعتصر كلما تقدم الزمن ، لذلك يصير لوكا تش على أن فعل الرواية هو صراع ضد قوى الزمن ، وهو ما تجسد في رواية التربية العاطفية لفلوبير ، ليأت بعدها النوع الثالث وهو الرواية التعليمية والتي يرى فيها طريق وسط بين مثالية مجردة متجهة كلية نحو الفعل ورومانسية الأوهام¹³ ، التي صيرت الذات إلى ذات متأمل لا تشارك في الحياة الخارجية ، وفيها لا يغامر البطل بفعل يعرف فشله فيه مسبقاً، ويكتفي فقط بالتكيف،

3- لوسيان غولدمان وسوسيولوجيا الأدب:

يجمع جل الدراسيين سوسيولوجيا الأدب عند لوسيان غولدمان تأثره بجورج لوكا تش الذي يرى حضوره ضرورة في الفكر الغربي ، وهو ما يفسر بالنسبة إليهم وإلى حد ما مدى التلاؤم النظري والمنهجي عند لوكا تش مع تصورات غولدمان و منطلقاته ، بشكل انعكس على هذا الأخير في استلهاها وتطويرها كذلك ، مختبرا في الوقت ذاته قيمتها عن طريق التجريب ، ولعله بذلك تجاوز معلمه وأستاذه محققا بذلك مكانته في تخصص لازال في وكذا خروجه من لعنة دافنبتشي ليوناردو من أن يكون تلميذا حقيرا (إنه لتلميذ حقير من لا يتجاوز معلمه) ، وغولدمان واحد من الذين لم يغيروا أساسهم الفلسفي فموضوع الفكر التاريخي عنده هو الوقائع الاجتماعية ، هذه الأخيرة بدورها لا يمكن أن تفهم إلا عن طريق رصد بنيانها التحتية.

عمل غولدمان على إظهار الأدب باعتباره ممارسة مندرجة في نسيج الممارسات الاجتماعية ، فالواقع الأدبي إذا ما أخذت جميع أبعاده فسوف يكون بالضرورة واقعة اجتماعية ، وما حضور النقد بما فيه النقد السوسيولوجي لا لغرض التقرب من النصوص بل أهميته تكن في التأصيل العلمي لسوسيولوجيا الأدب ، انطلاقا دائما من سؤال ثابت وحاضر هو علاقة الأدب بالمجتمع ، وهي عند غولدمان علاقة ذات تفاعل متبادل ، فالاجتماعي ليس شيئا غريبا على الناس بل هو موجود في دواخلهم ومعهم، وما الكاتب الأديب إلا وسيط بين الأثر الأدبي وبين الفئة الاجتماعية التي عبر عن أفكارها ومشاعرها ، وما تطرحه سوسيولوجيا الأدب على بساط البحث ما هو إلا العلاقات التي تقيمها النصوص الأدبية مع الحياة الاجتماعية، أو بمعنى أصح الواقع الاجتماعي حتى لو كان عن طريق الخيال الذي ما هو إلا واقع بالغ التركيز كما يقول بذلك ماركسيا كآرست فيشر.

ورغم تقصيرنا في معرفة كل الأفكار التي جاء بها لوسيان غولدمان إلا أن ما تمكنا من حصره في إنتاج هذا المفكر هو لا يتعدى بعض الأفكار والتي سنحاول أن نناقشها تباعا ، فما يعرف عنه في النقد الأدبي يمكن أن نعرفه عنه في النقد الاجتماعي خاصة ، بل إننا نجد يطرح بعض الأمور أحدث شهرتها مع غيره، كما حدث لفكرة موت الراوي التي التصقت مع رولان بارت، وما ستكون فيما بعد بمثابة الكلمة المفتاحية للنقد المعاصر عموما، بحيث يصبح المؤلف لا يعرف أكثر من غيره ، وكلاهما الكاتب والقارئ يصبحان في رحلة البحث عن الحقيقة بدء من النص ذاته الذي ينجم عن فعل ما للمجتمع ، وبالتالي فإن أي كاتب أو أديب لا يكف عن غزو الواقع اليومي، فهو يكتب عن أشياء قد يكون في حاجة إليها لكنه لا يعيها أو يعينها إطلاقا ، لأنه ببساطة أمام واقع متنوع .

لاشك في أن الأدب يساهم في صنع الوعي، وتعتبره السوسيولوجيا كذلك مجال أساسي لمعرفة الجانب الاجتماعي، فهو ليس خطابا معرفيا يقدم الحقائق والنظريات فقط ، لذا نجد عالم الاجتماع مثلا يصوغ نماذج معينة يفسر عن طريقها الأعمال الفكرية والأدبية ، كون كل عمل ثقافي هو في الوقت ذاته ظاهرة فردية واجتماعية، وهو يدخل في شيئين يتكونان من شخص المبدع ومن الجماعة التي نشأت في حضنها المقولات الذهنية التي تحدد ذلك الشخص ، ويرى ألان تورين أن المسارات الإنسانية الجديدة قد انتقل من فكرة المجتمع التي هيمنت طيلة قرنين على العلوم الإنسانية إلى براديغم (مفهوم) الثقافة الذي هو مدخل -بنظره- إلى فهم كل أزمت وإشكالات الوضع الدولي الراهن ، هذه الحالة نجد كثير من النصوص الأدبية ساهمت في توضيحها ، نقول هذا بالرغم من قوة الواقع الذي نعيشه ونجده أحيانا ينفلت من بين أيدينا، بعد هذا الاستطراد لا يسعنا إلا نركز وهو ما تفعله سوسيولوجيا الأدب على العلاقة الأساسية بين الحياة الاجتماعية والإبداع الأدبي، وهي علاقة جدلية بالأساس، فخلف تاريخ

الرواية يكمن معنى التاريخ الذي عبرت عنه فلسفة التاريخ كذلك¹⁵.

إن ما فعله لوسيان غولدمان هو أن جعل لعلم الاجتماع الأدب نوعا من الاستقلالية وعدم التبعية لعلم الاجتماع الماركسي وكذلك علم الاجتماع الوضعي، رغم أنه لا ينكر فضلها على علمه إن صح التعبير أو منهجه، نذكر كذلك مؤلف روني جيرار "كذب رومانسي وحقيقة روائية" الذي وجد فيه تقاطعات كثيرة مع الأفكار التي اعتمدها معلمه لوكا تش الذي استطاع أن يضع أو يصوغ نموذجاً للرواية، انطلاقاً من العلاقة التي تربط البطل بالعالم، لذا يتفق كلاهما على أن سوسولوجيا الأدب تعتبر المبدع الحقيقي هو المجتمع، ولا تكتفي بالوقوف عند أفراد معينين، حيث يعد المبدع في النص الأدبي فاعلاً جماعياً معبراً عن طبقة الاجتماعية، ومما ركز عليه لوكا تش وأكد لوسيان غولدمان هو نمط الوعي ومدى التغيير الذي طرأ على الرؤية إلى العالم، ولذلك سنحاول أن نقف عند بعض البراديجمات التي وقف عندها غولدمان، ولنبدأ بالمنهج البنوي التكويني، الذي تشكل من جملة تصورات ونظريات منها ما هو ماركسي وما هو بنوي وما هو تحليل نفسي.

4- البنيوية التكوينية:

كما أشرنا إلى أن غولدمان كان متابعاً للأعمال الأولى للوكاتش وبفضل هذه المتابعة استطاع أن يطورها تحت تأثير الفكر الماركسي والتيار البنوي ليضع بعد كل هذا الجهد منظومة طريقته ومنهجه العلمي لدراسة مختلف النشاطات الإنسانية، خاصة ما يتعلق بالإبداع الثقافي، هذا المنهج هو البنوي التكويني أين تكون فيه البنية غير قارة وتندرج ضمن سيروية تكون، ويؤكد على أن كل سلوك إنساني له خاصية دالة أي كل واقعة إنسانية هي واقعة دالة¹⁶، حتى ولو انتابها الغموض والإبهام في بعض الأحيان، لذا نجد غولدمان يهتم بمفهوم البنية الدالة الذي برأيه يلعب دوراً نظرياً ودوراً معيارياً، فهو أداة أساسية تمكننا من فهم

طبيعة الأعمال الأدبية ودلالاتها من جهة، ومن جهة أخرى معيار يسمح لنا بأن نحكم على قيمتها الفلسفية أو الأدبية أو الجمالية، ويرجع كل هذا في كون الفنان لا ينسج الواقع ولا يعلم الحقائق "إنه يخلق كائنات تشكل فيما بينها عالماً موحداً"¹⁷، حتى أننا نجد فيليب هامون يعرف الشخصية في النص الأدبي على أنها تركيب يقوم به القارئ أكثر مما يقوم به النص، فهي ليست كائناً جاهزاً ولا ذات نفسية بل هي حسب التحليل البنوي بمثابة دليل sign له وجهان أحدهما دال والآخر مدلول، وهنا يمكن لنا أن نشير إلى سوسولوجيا القراءة كمناقشة لسوسولوجيا الأدب، هذه السوسولوجيا التي أصبحت مخطوبة اليد من قبل المشتغلين في الأدب، وعليه فإن البنيوية التكوينية قد تكون أو تؤدي دور قراءة لمؤلفات تبحث عن التماثلات التي تجمع بين البنى الدلالية في هذه المؤلفات مع البنى الدلالية في الرؤية إلى العالم لدى جماعة من الأفراد، وهي بالتالي تأخذ شكلاً إمبيريقياً خصوصاً في دراستها للنصوص الأدبية، هذا ما يجعلنا نستنتج من خلال ما أوردناه أن سوسولوجيا الأدب الجدلية والمناضلة لا تزال ترغب في قول ما هو كائن ولما حتى ما ينبغي أن يكون.

وانطلاقاً من المفهوم الهيجلي للتاريخ سنجد غولدمان حريصاً على دراسة البناء والأصل، هذه البنى التي تكون السلوك الإنساني هي عوامل خاصة تولدت من أصل ماض ومتطور باستمرار، فمن الوجهة التاريخية يرجع الكثير من الباحثين ظهور البنيوية التكوينية لأول مرة كفكرة رئيسية مع هيجل وماركس وهي تعني فيما تعنيه تصور علمي حول الحياة الإنسانية ضمن بعدها الاجتماعي، وهذا يرجع بالأساس -كزيادة للتأكيد- على أن كل تفكير في العلوم الإنسانية إنما يتم من داخل المجتمع لا من خارجه وبأنه جزء من الحياة الفكرية لهذا المجتمع لذلك هو جزء من الحياة الاجتماعية، لذا لا يمكن فهم أي بناء إلا في ظل بناء أكثر شمولية، وكلما تغيرت الظروف وتوسع البناء تغير السلوك طبقاً لهذه الظروف الجديدة والغاية هي إحداث توازن

جديد، وبفضل هذا التوازن الجديد سيكتسي السلوك الاجتماعي - مهما كان نوعه - طابعا دلاليا¹⁸.

ارتبط تشكل البنيوية التكوينية بالإضافة إلى هيغل وماركس كذلك بالتحليل النفسي خصوصا لدى فرويد، وبرأي غولدمان هناك نقاط التقاء فيما بينهم، منها كما سبق الإشارة كل واقعة إنسانية هي واقعة دالة، أي كل سلوك إنساني هو جزء من بنية دالة واحدة على الأقل، وهو ما توصل إليه غولدمان من نتيجة بعد استقراءه مضمون الروايات الذي ساعده على إيجاد دلالات موضوعية، وهنا وبهذا المعنى يطلب من الباحث في سوسيولوجيا الأدب بأن يتناول المقولات الدالة كظاهرة اجتماعية لا فردية، وعليه كذلك أن يفهم أي سلوك بإدخاله في بيئته الكلية والذي يبقى ملزما بالكشف عنها، لأنه مرتبطة أو ناتجة عن خاصيتها الكلية، والتي لا تفهم وتدرج إدراكا حقيقيا إلا في تكوينها الفردي والتاريخي أو حتى الاقتصادي، كون كل فئة من الفئات الاجتماعية تبني وعيها وبنيتها الذهنية من خلال علاقتها المتينة مع ممارستها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية داخل المجتمع في كليته¹⁹، ومع أن التحليل النفسي مثله مثل السوسيولوجيا التي يدعى إليها هي بنيوية تكوينية مع أن تفسيرات التحليل النفسي لا تمكننا إلا من فهم جزء ضئيل من النص الأدبي وليس في إمكانها أن تميز عمل عبقرى عن هذيان مختل معتوه، غير أنها مضطرة دائما- البنيوية التكوينية- على الاحتفاظ بالخصوصية التاريخية والثقافية القائمة على التمييز بين الذوات الفردية والذوات الجمعية²⁰، وزيادة على التطعيم الماركسي للبنيوية التكوينية كان هناك تطعيم آخر يراه بعض الباحثين في علم النفس الذكاء ولا يفوتنا أن نذكر بمدى تأثير جان بياجيه خصوصا في الاستيمولوجيا التكوينية وهو معروف لدى الأوساط العلمية كعالم نفس وتربية ففي كتابية "مكانة الإنسان في نسق العلوم" و"تكوين وتاريخ العلوم" يؤكد على أن تاريخ العلوم يعد تاريخ لنشاط إنساني فاعليته العقلية المبدعة، فتاريخ الفكر العلمي عنده ليس عبارة عن مراحل

زمنية وكفى، بل هو سياقات منطقية ينتقل فيها الفكر من مرحلة إلى أخرى، ويتأثر من أستاذه ريمون آرون وظف المنهج التاريخي في الاستيمولوجيا التكوينية، ويتفق كذلك مع كوهن في أن عجز المعرفة القائمة الرد على التساؤلات والتكليف مع الظروف الراهنة يحدث ثورة علمية في شتى المجال، وما جاء به يمكن أن نحصره في إحدى أوجهه في الانبناء المعرفي، حل هذا الفكر تلقاه غولدمان ليؤسس به نظريته البنية التكوينية التي تقتضي بأن كل ظاهرة تدخل تحت عدد من البنيات ذات مستويات مختلفة.

وفق نيتشه العالم واقع مثقل بالغرابة والغموض والإشكال، لذا لا يمكن للنص الأدبي أن يحتويه كاملا، كون النص-أي نص- ليس إلا مجموعة دول ومدلولات (أثر)، ومهما حاولت سوسيولوجيا الأدب من تفسير جزء هام من النص الأدبي فإنها تبقى مقصورة في حقه، فبعد أن خاب أمل غولدمان في الماركسية التقليدية استعان بنظرية الرواية الميتافيزيقية للوكا تش ليمنحها بعدا اجتماعيا، فهو يرى في الرواية تشكل العمل الأدبي الذي يعكس الحياة اليومية في مجتمع بطبعه نظام السوق²¹، وما هذه الدراسة الجديدة التي أطلق عليها غولدمان سوسيولوجيا الأدب إلا إعلانا لخصومة مع مختلف الكيفيات التي كان التاريخ الأدبي أو النقد التي يتعامل بها مع الانتاجات الأدبية، وكذلك مع السوسيولوجيا الوضعية التي وقفت عند إحصاء المنتوجات الأدبية، والفهم الوضعي لعلاقة الأدب بالمجتمع، فهو يرفض كل مفهوم أحادي الجانب عن علاقة العلة بالمعلول، متشبث بمفهوم الكلية الذي ورثه كإحدى أهم المفاهيم عن أستاذه لوكا تش، وما فعلته السوسيولوجيا لا يمكن تفسيره إلا بمبادرتها لأن تحمل على عاتقها مهمة مناقشة القضايا التي أزعجتها السياسة والاقتصاد من مجال اهتمامهما.

قد نكون في هذه المقالة لم نوفق في مسك الثور من قرنيه كما يقول المثل وقد يكون هذا راجع بالأساس إلى قوة الثور، أي بمعنى فكر سوسيولوجيا الأدب عبر أبرز ممثليه وهما جورج لوكا تش ولوسيان غولدمان ومن جاء بعدهما،

6-السينما : تجلي تعاون الأدب والفن

إذا كان تعبير الأدب هو في الأصل تعبير عن هوية، فإن الفن والسينما لا يمكنها أن تخرج عن هذا الإطار، وإذا كان الأدب أيضا أو حتى علم الاجتماع الأدب هو علم يبحث في الواقع ويتخذ منه مختبرا، فإن السينما والفن عموما تتطرق لمواضيع ذات صبغة واقعية وعالمية، فهي كوسيلة اتصال جماهيرية تنقل ما هو كائن، وتعبر عن الواقع المجتمعي، وهي وإن اعتمدت على العمل الروائي الذي شأنه شأن أي عمل أدبي تدخل في الواقع أو محاولة لرسم صورة لذلك الواقع، يقول عبد الرحمان منيف "إن الروائي يحاول أن يعكس حقيقة أفكار الناس وأقوالهم وتصرفاتهم، ولا يريد أن يروج لفكرة أو تصرف"، غير أن السينما تستقل الشطر الأخير من كلام منيف وتعمل على ترويح فكر أو سلوك ما، بحالة فنية فيها إدهاش وجذب للجمهور وهي بهذه الحالة خادمة للأدب وللرواية، هذه الأخيرة قد تدين مجموعة من الممارسات قد تكون سياسية أو اجتماعية، وما على السينما إلا إظهارها وكشفها من خلال الفيلم السينمائي، ففضلا عن كونها أداة تواصل فهي وسيلة ناجعة تتيح للوعي الجمعي التعبير عن طريق مناهج الثقافة²⁴، وهي في النهاية تكشف ما يمكن أن يسمى "نقط التأمل" أي أسئلة الآمال والألأم²⁵.

خاتمة :

في النهاية وأنا أكتب هذا المقال توقفت كثيرا عند الرواية على قراءات هامشية، وأعجبتني ذلك الجواب الموجز الذي وضعه الدكتور الطيب بوعزة من سؤال انطلق منه في كتابه ماهية الرواية لماذا الرواية؟ يجب لأنها الحياة وهنا تذكرت قول مايك ويليت الحياة ليست ما يحدث لنا بل ما يحدث منا، إذ لا تزال الرواية إلى اليوم نابضة بدفق الحياة لأن ثمة تعالق صميم بين الحياة والرواية، وما الكتابة الا مشاهدة ومشاهدة دائمة، بل إن الرواية منذ تأسيسها ما طلبت غير سبر لغز هذا الكائن الإنسان، فلقد تساءلت

غير أننا حرصنا كل الحرص في تقديم أهم الأفكار-بنظرنا- لهذين المفكرين اعتمادا على النقد كضرورة معرفية، وكامتداد مباشر للطريقة النقدية التي أسسها هيغل ومن بعده ماركس، والتي استفاد منها لوكا تش أي من نقديتهم لتوضيح مدى التوتر الذي لازال سائدا بين التنظير والممارسة، وهذه الفكرة ستبلغ رباها كآلية نقدية للرأسمالية المعاصرة مع هابر ماس وغيره.

5-سوسيولوجيا الأدب وفاعلية السينما :

لا شك أن الفيلم السينمائي الذي يبنى على أنقاض الأدب والفن يعد وثيقة اجتماعية هامة تؤرخ بشكل ما أو تعيد نسج وقائع اجتماعية مهمة، مبنية على جدلية الفرد والمجتمع أو الفرد والسلطة أو حتى الطبيعة، وهي كتعبير اجتماعي قادرة عموما على تناول أغلب المواضيع إن لم نقل كلها كما يقول الباحث مصطفى أبو علي²².

إن ما يجعل نقطة الالتقاء واضحة وجلية بين السوسيولوجيا (بكل تخصصاتها) والسينما، تلك الأشياء المحسوسة أو ما يعرف بالظاهرة التي تتطرق إليها السوسيولوجيا (من خلال رصدتها في الواقع) ومن ثم تحليلها ودراستها، على عكس السينما -ربما- التي تكتفي بتقديمها أو تقديم صورة لمجتمع ما، وهي بهذا تكون وسيلة تعبير جماهيرية، فمن خلالها تقدم الحقائق والأحداث وتتكشف عيوب المجتمع، وهو ما تحاول السوسيولوجيا منذ ظهورها أن تفعله من خلال اقتحامها كافة المجالات والحقول الفكرية والعلمية والأدبية بما فيها الفن أو ما أصبح يعرف بسوسيولوجيا الفن، هذا الأخير الذي يتحدد ويكتسب شرعيته من ارتباط مؤسس بالمنظومات الاجتماعية، وبأوجه محددة من النشاط الإنساني كالغناء والموسيقى والسينما، فسوسيولوجيا السينما مثلا تعرض أيضا تحديد الفاعلين والمساهمين وذلك من خلال الجهد المبذول لمعرفة العلاقات الاجتماعية، إنها تتطلع إلى تأسيس علاقات التآلف بين المنتجات الفيلمية وبنياتها السوسيواقتصادية²³.

- 08- جورج لو كاتش الرواية التاريخية ترجمة صالح جواد الكاظم وزارة الثقافة والإعلام بغداد ط2 1986 ص.09
- 09- عبد السلام بنعبد العالي نفس المرجع ص25-26.
- 10- محمد ساري نفس المرجع ص.16
- 11- الطيب بوعزة في ماهية الرواية مؤسسة الانتشار العربي بيروت 2013 ص52-53.
- 12- محمد ساري نفس المرجع ص.12.
- 13- محمد ساري نفس المرجع ص.17
- 14- الطيب بوعزة نفس المرجع ص.284
- 15- السيد ولد أباه الدين والهوية إشكالات الصدام والحوار والسلطة ص.138
- 16- محمد ساري نفس المرجع ص.29
- 17- لوسيان غولدمان الإله الخفي مرجع سابق ص
- 18- محمد ساري نفس المرجع ص32-33.
- 19- عبد السلام بنعبد العالي نفس المرجع ص.41
- 20- لوسيان غولدمان العلوم الانسانية والفلسفة ترجمة يوسف الأنطكي مراجعة محمد برادة المجلس الأعلى للثقافة 1996 ص.150
- 21- عبد السلام بنعبد العالي نفس المرجع ص.39
- 22- وليد شميظ وآخرون فلسطين في السينما منشورات فجر بيروت باريس ص.45
- 23- M.DRISS JAIDI ,CINEGRAPHIQUE CINEMA ET SOCIETE, ALMAJAL, REBAT 1995 P05.
- 24- M.DRISS JAIDI ,LISON S DE LA SOCIETE MAROCAINE A TRAVERS LE COURT METRAGE
- 25- SORLIN PIERE ,SOCIOLOGIE DU CINEMA ,AUBIER MONTAIGNE, PARIS , 1977 P24

مع سرفانتيس عما هي المغامرة وبدأت مع صموئيل ريشاردسون محض ما يدور في الداخل ، وفي الكشف عن الحياة السرية للمشاعر ، واكتشفت مع بلزاك تجذر الإنسان في التاريخ وسبرت مع فلوبيير أرضا كانت حتى ذلك الحين مجهولة هي أرض الحياة اليومية، وعكفت مع تولستوي على تدخل اللاعقلاني في القرارات وفي السلوك البشري ، إنها تستقصي الزمن اللخطة الماضية التي لا يمكن القبض عليها مع مارسيل بروست واللحظة القادمة أو الحاضرة التي تم القبض عليها مع جيمس جويس مع أن روايته وضعت الكثير من الألباز والأحاجي لازالت تشغل بل الأساتذة إلى الآن ، وما بدأنا به ننهيه من إن السوسيولوجيا لا بد لها من رفقة حتى لو كانت مع الأدب الذي لا يكون في كثير من الحالات رفيقا يوثق به ، ومما ساعد الرواية على الانتشار وزيادة القراءة السينما التي لم نخض فيها في هذا المقال بالقدر الكافي ، على أمل أن نعمق في هذا الموضوع في مقالات قادمة — إن شاء الله - .

الهوامش:

- 01- محمد ساري الأدب والمجتمع دار الأمل الجزائر 2009 ص04
- 02- عبد السلام بنعبد العالي حوار مع الفكر الفرنسي دار توفال المغرب 2008 ص23
- 03- محمد ساري نفس المرجع ص21
- 04- دفيد انجليز وجون هيسون مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة ترجمة لما نصير المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية قطر ط1 2013 ص18-19.
- 05- لوسيان غولدمان الإله الخفي ترجمة زبيدة القاضي وزارة الثقافة سوريا 2010 ص10-11.
- 06- محمد ساري نفس المرجع ص.12
- 07- محمد ساري نفس المرجع ص12-13.